العمارة القبطية بمصر

وفد السيد المسيح إلى مصر بصُحبة أمه السيدة مريم العذراء، ويوسف النجار، فى رحلة الهروب من هيرودس، ليؤكد منذ البداية تحول شعب مصر من الوثنية إلى المسيحية فى وقت بات فيه الشعب المصرى متطلعاً إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، بعد أن قطع شوطًا كبيراً فى سبيل الوحدانية على مر تاريخه، وفى صحراء المحرق، حيث كان الدير المحرق فيما بعد، أورد أبو صالح الأرمنى وغيره من المؤرخين أول كنيسة أو بيعة لمصر فى مكانٍ باركته السيدة العذراء والسيد المسيح الطفل، ويوسف النجار بيعة قوسقام[1].

وكان التبشير بقدوم المسيحية إلى مصر وانتشارها على يد القديس مرقس الإنجيلى فى بدايات النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، حين وفد إلى مدينة الإسكندرية سرا، حيث يذكر أنه أسس فى منطقة «بوكوليا» بالإسكندرية الكنيسة الأولى لمصر[2].

أطلق مرقس الإنجيلى الشرارة الأولى للدين الجديد، بعد أن كلفه هذا الأمر حياته، ووجدت هذه الشرارة صدىً كبيراً فى نفوس الشعب المصرى، حيث بدأت الدعوة تنتشر

---

(١) أبو صالح الأرمنى كنائس وأديرة، نشر Evetts (أكسفورد ١٨٩٥ م) ص ٨٨ ـ ٩٩.

وانظر عن دير المحرق:

villard, du: Deyr El Moharraq, Millan, 1929 Gayet, L'Art, copte, paris, 1902, p. 103

Myinardus, O; Monks and Monasreies of The Egypt Deserts, Cairo, 1901, pp. 203 - 304

وأيضاً: اغريغوريوس: الدير المحرق: تاريخه ووصفه وكل مشتملاته، مطبعة دار العالم العربى، القاهرة.

(٢) اختلفت الآراء حول السنة التى وَفَد فيها مرقس الإنجيلى إلى مصر فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وقد ذكرت بعض المصادر أن وفاته كانت فى عام ٥٥ م.

انظر: السنكسار القبطى: حوادث ٣٠ برمودة، جـ ٢، ص ١٤٧ ـ ص ١٥٠، ساويرس، تاريخ البطاركة المجلد الأول ص ١٩ ـ ٢٥.

الباز العرينى: مصر البيزنطية، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٣ وما بعدها.

زكى شنودة: موسوعة تاريخ الأقباط، القاهرة ١٩٦٨، جـ١ ص ٢٩ وما بعدها.

بتشر: الأمة القبطية وكنيستها، القاهرة ١٩٦٨، جـ١، ص ٢٧٠.

سرا فى مجتمع تسوده الوثنية، ويساندها جيش الرومان وبطشه، حيث بدأ الصراع بين المسيحية الدين الجديد القادم والوثنية دين الرومان والشعب فى آنٍ واحد.

تحمل الشعب المصرى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد معاناة وصراعًا وآلامًا كثيرة ألمت بمعتنقى الدين الجديد، حيث تفاعلت هذه المعاناة على نطاق واسع من خلال ما عُرف بالاضطهادات الدينية العديدة التى شهدتها مصر العالم كله على أيدى الرومان، والتى نتج عنها ما عُرف أيضاً ببدايات نشأة نظام الرهبنة، حيث يعتقد كثير من الباحثين أن حياة الرهبنة الأولى فى مصر، بدأت مباشرة بعد وفاة القديس مرقس الإنجيلى، إذ نشأ بين معتنقى الدين الجديد حالة من الزهد والتقشف فى منازلهم، وإنْ كانت أعباء الحياة ومتطلباتها لم تمكنهم من القيام بواجباتهم الدينية على النحو الصحيح لأسباب عديدة، مِمَّا دفَعَ قليلاً منهم فى البداية إلى الخروج إلى الجبال والصحراء ليعيشوا فى أماكن معزولة يمارسون فيها نوعًا من حياة الزهد والتقشف[١]. والواقع أن طابع الخروج إلى الصحراء لغرض دينى بحت وعبادة خالصة، كان من شأنه إيجاد البدايات الأولى لنظام الرهبنة فى مصر، حتى أنه أصبح ـ بحلول القرن الثالث الميلادى ـ أصبح للراهب مدلول واضح يُعَرِّفُهُ بالمُنْسَحِب من الدنيا، والمنقطع عن العالم[٢].

لقد كانت معاناة شعب مصر فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد كبيرة وشاقة، وكانت كل حركة من حركات الاضطهاد الدينى المعروفة تُقَابَل بزيادة ملحوظة فى عدد المسيحيين، حتى بلغت قمتها زمن حكم الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م)، وهو الرجل الذى استهل حكمه بتركيز جهده للقضاء على المسيحية فى شخصية معتنقيها، فقتل وشرَّدَ الآلاف، وكانت مصر فى زمنه تعانى الكثير من الاضطهاد حتى عُرف عصره عامة فى مصر بعصر الشهداء، وكان لهذا العصر آثاره المهمة فى كل النواحى فى مصر، فاتخذ الأقباط لأنفسهم اسمًا علمًا ليميزهم عن مَسِحيِّى العالم كله.

(١) ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الأصول القديمة لنظام الرهبنة كانت عادة مصرية قدمية، فكرها ومنهجها الانسحاب من المجتمع إلى مكان معزول لتحقيق رغبة دينية بدلا من إتمام مواهب الحياة الطبيعية، ثم حدث تطور فى منهج هذا الفكر فى العصر اليونانى فى محاولة للمزج بين التقوى والدين بفعل الفلسفة اليونانية، وكان مكان هذه الخلوات داخل معابد السيرابيوم.
انظر: متى المسكين: الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار، الطبعة الأولى ١٩٧٢، ص ٣٨ ـ ص ٣٩ وهارولد إدريس بل: الهلينية فى مصر، ترجمة زكى على، القاهرة سنة ١٩٤٨.
George, H: The Early church from Ignative to Augustine, Newyork, 1915, pp. 154 - 155

(٢) انظر:
Meinardus, O: op. cit, pp. 398 - 399
والياز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٢٥.

وبدأ الفن فى منحنى جديد بعيداً عن الفن السكندرى بعيداً عن الرومان وأساليبهم الفنية، بحيث يمكن القول بأن اضطهاد دقلديانوس ترتب عليه تغييرات جذرية تدريجية فى مصر، شملت النواحى السياسية والدينية والاجتماعية والفنية فى مصر، بل إن تأثير فترة دقلديانوس، جعل من الأباطرة الرومان بعد ذلك يفكرون فى شىء جديد فى مجابهة المسيحية بعد أن ثبت أن أساليب القمع لن تجدى، فتغير الحال فى محاولة للعدول عن مثل هذه الأساليب، حتى جعلها الإمبراطور قنسطنطين أحد الشرائع المسموح باعتناقها، فمهد بهذا الأمر الطريق للإمبراطور ثيوديس عام ٣٩٥ م لتصبح الدين الرسمى للإمبراطورية[١]. وإذا كانت مصر قد نعمت بالاعتراف بالمسيحية دينًا، فإن الخلاف المذهبى حول طبيعة السيد المسيح قد بدد كثيرًا من فترة الهدوء النسبى بين مصر صاحبة اعتناق مذهب الطبيعةالواحدة وبين مذهب الدولة الحاكمة صاحبة مذهب الطبيعتين أو بين اليعاقبة عامة الشعب المصرى، والملكانية مذهب الحاكم، وهو الأمر الذى تم حسمه عام ٤٥١ م، وتمثل فى انفصال الكنيسة القبطية عن الكنيسة المسيحية الأم فى مجمع خلقدونية[٢].

والواقع أن الصراع بين أقباط مصر وحكامهم البيزنطيين لم يهدأ إلا بالفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص، الذى وَضَعَ نهاية لهذا الصراع الطويل بفتحه مصر وتخليصها من براثن البيزنطيين، فتخلصت الكنيسة المصرية من أعمال الظلم والعدوان التى تعرضت له بفعل تعاليم الإسلام السمحة، فانتشر الإسلام فى مصر عن طواعية واختيار[٣]. وكان للسياسة الرشيدة التى نهجها عمرو بن العاص فى مصر أثرها الواضح فى عودة الهدوء وشعور الأقباط بالأمن، وهو الأمر الذى يتضح من خلال الأمان الذى

---

(١) إدريس بل: الهلينية فى مصر، ص ١٤٠.

(٢) انظر: الشهرستانى: الملل والنحل، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٠٨، والدكتور سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦١، جـ ١، ص ٣٥، ويحيى الخشاب، كتاب بيان الأديان، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٩، ص ٢٤. والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٨ ـ ص ٤٨٩

Adeny, F.W: The Greek and Eastern churches, Newyork, 1928, pp. 553 ` 554.

(٣) انظر: حسن إبراهيم حسن: عمرو بن العاص، القاهرة، ص ٦٣، وسيدة الكاشف مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة ١٩٤٧م ص ١٩٧ ـ ص ١٩٨، بتلر فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣، ص ٣٩٣.

أعطاه للمسيحيين وجاء فيه: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص، أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليه شيء ولاينتقص[١]». وكذلك الأمان الذى أعطاه للبطريك بنيامين بطريرك الأقباط (٦٠٩ ـ ٦٤٨م) وكان متخفيًا من وجه قيرس الحاكم البيزنطى، ولاذى جاء فيه: «فليظهر الشيخ البطريرك مطمئنًا على نفسه، وعلى طائفة القبط جميعهم التى بالديار المصرية وغيرها آمنين على أنفسهم من كل مكروه[٢]، ويذكر ساويرس «فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاث عشرة سنة[٣]».

لقد شعر أقباط مصر منذ البداية بأن القائد الإسلامى لا يحمل لهم كرهًا أو يخفى لهم اضطهادًا جديدًا، كما ظل الحكم المدنى بمصر لم يتغير، بل أصبح بعد فترة وجيزة، كل عمال الدولة يكادون أن يكونوا جميعًا من المسيحيين، وقد وضع عمرو بن العاص نصب عينيه مصلحة المصريين عامة[٤] وبدأت الكنيسة المصرية تنتعش من جديد وتأخذ حركة التجديد والتعمير على نطاق واسع.

تاريخ عمارة الكنيسة والدير قبل الإسلام(٥):

الواقع أن دراسة تاريخ عمارة الكنيسة والدير قبل الفتح الإسلامى لمصر يعد من الأمور الصعبة، حيث تتركز الدراسة فى هذا الموضوع على ثلاث نقاط رئيسية، هى تتبُّع سيرة بطاركة الكنيسة المصرية، وسيرة الآباء الأوائل ممن كان لهم دور مؤثر في حركة الرهبنة في صحراء مصر، ثم بقايا الآثار المادية المعمارية والزخرفية، وتتبُّع تطورها مرو خلال الأساليب المعمارية والزخرفية المتعارف عليها، وهو الأمر الذى يتضح معالمه خلال العصر الإسلامى.

أولا ـ سيرة بطاركة الكنيسة المصرية:

لعل من أهم النصوص التاريخية التى يُستفاد منها بداية تتبع حركة البناء فى الكنيسة المصرية ما أورده المؤرخ تقى الدين المقريزى من وجود كنائس بنيت سرا فى القرن الثانى

(١) ابن تَغْرِ بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) جـ ١، ص ٢٤.
(٢) ابو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ١٠١، ص ١٠٢.
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول «نشر جمعية الآثار القبطية» ص ١٠٧.
(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى والثقافى، جـ ١، ص ١٨٥.
(٥) انظر من هذا الموضوع:
مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة والفنون القبطية، هيئة الآثار المصرية ١٩٨٨، ص ١٥ ـ ص ٣٠.

الميلادى، ما بين فترة البطريرك بريموس[١] وفترة البطريرك ديمتريوس[٢]، حيث يرد فى نص المقريزى قوله: «وفى أيامه أثار الملك سوريانوس قيصر على النصارى بلاءً كبيرًا فى جميع مملكته، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وقدم مصر وقتل جميع من فيها من النصارى، وهدم كنائسهم، وبنى بالإسكندرية هيكلا لأصنامه»[٣]. ويبدو هذا الأمر منطقيا، فمع زيادة انتشار المسيحية فى مصر، بُنيت بعض الكنائس القليلة سرا، ربما فى أواخر القرن الثانى الميلادى وبداية القرن الثالث الميلادى، وكان من الطبيعى أن تتعرض هذه الكنائس للتدمير على يد الأباطرة ونوابهم على مصر. ونعتقد بأن هذه الكنائس الأولى ربما كانت على درجة كبيرة من البساطة، وفى أماكن سرية، ولا تخضع لنمط معين من التخطيط، كما يرد من خلال سيرة البطاركة أول إشارة إلى بناء الأديرة فى مصر على يد الراهب أنطونيوس[٤] فى فترة بطريكية ديونيسيوس (٢٤١ ـ ٢٦٢م)، ويذكر النص: «وفى أيامه كان الراهب أنطونيوس المصرى، وهو أول من ابتدأ يلبس الصوف وابتدأ بعمارة الديارات فى البرارى وأنزل بها الرهبان»[٥] كما ظهر أيضا الأنبا بولا، أول المتحدين من المصريين فى المسيحية فى فترة بطريركيته، ويعد هذا النص غاية فى الأهمية، حيث يرجع عمارة الأديرة فى مصر إلى حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى، وكانت هذه العمارة بسيطة بطبيعة الحال تواكب حالة الزهد والتقشف التى درج عليها كل من ذهب إلى الصحراء لوحدانية الله، بل إنها حين تطورت بعد ذلك فى القرون التالية اتسمت عمارتها بنفس البساطة الشديدة، والتى تكفى من خلال العناصر المعمارية المجتمعة لتحقيق مبدأ الأمان للرهبان فى انعزالهم عن الحياة.

---

(١) تولى منصب البطريرك عام ١١٢م وعاصر الإمبراطور الرومانى إدريانوس.

(٢) تولى منصب البطريرك عام ١٩١م وعاصر خمسة أباطرة، وكان له دور مهم فى تاريخ الكنيسة المصرية، وإليه يرجع الفضل فى وضع الحساب المعروف بحساب القبطى الخاص بتحديد عيد القيامة، وهو الحساب المعمول به للآن فى الكنائس الشرقية واستمر فى فترة بطريكيته حتى عام ٢٤٤م.

انظر: إيريس المصرى: قصة الكنيسة المصرية، القاهرة، ص ٤٤ ـ ص ٥١.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٤٨٤ ـ ص ٤٨٥.

(٤) عاصر هذا البطريرك كل من الأباطرة: قيوس، وجالوس، وفاليرناوس، وجاليانوس، وكلوديوس، واشتهر بمعرفته فى العلوم الفلسفية واللاهوتية. وقد اندلع فى فترته اضطهاد كبير قاده الإمبراطور دقيوس.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٥، السنكسار القبطى، حوادث ٢٢ طوبة، أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة، ص ٦٩.

ويبدو أن فترة بطريكية ثيؤناس[١] كانت من أهم الفترات التى شهدت بعض الأحداث المهمة فى عمارة الكنيسة المصرية، وهو الذى تولى منصب البطريرك من عام ٢٧٤م وحتى عام ٢٨٥م، وفى فترته تمكن من أن يبنى كنيسة الإسكندرية للمرة الأولى «حيث صلى بها النصارى لأول مرة جهراً»[٢]. وقد تمكن أن يفعل هذا بفضل علاقته الطيبة مع الرومان، وهى التى كانت على حد قول المقريزى: «فَلاطَفَ الروم، وأهدى إليهم تحفاً جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالإسكندرية»[٣].

ومن هذا النص يتضح أول بناء لعمارة الكنيسة فى عهد هذا البطريرك على وجه التحديد، حيث من المرجح أن تكون هذه الكنيسة قد اتخذت مظهراً معيناً من التخطيط المعمارى، كما أنها كانت كنيسة كبيرة، ضَمَّتْ فى الصلاة الأولى بها ـ بريادة هذا البطريرك ـ عدداً كبيراً جدا من المسيحيين الذين تكاتفوا فى مواجهة الرومان.

على أن حالة الهدوء التى انتابت الكنيسة المصرية فى زمن هذا البطريرك لم تدم طويلاً، حيث اعتلى الإمبراطور دقلديانوس عرش الإمبراطورية الرومانية عام ٢٨٤م ليدخل العالم المسيحى كله فى فترة دامية من الصراع بين المسيحية والوثنية، كان نصيب الاضطهاد منها فى مصر أشدَّ وأعمَّ من كل بلاد العالم المسيحى، وكان من بين ما شمله هذا الاضطهاد بطبيعة الحال تدمير الكنائس المصرية حيثما وجدت[٤]، وقد قتل هذا الإمبراطور البطريرك بطرس، المعروف بخاتم الشهداء، وقتل معه مجموعة كبيرة من الأساقفة والرهبان وعلماء المسيحية[٥]. وكان لحركة هذا الإمبراطور أثرها الكبير على مَسيحِيِّى مصر الذين اتخذوا لأنفسهم تقويماً جديداً، اعتبارا من عام ٢٨٤م، حيث عُرف هذا العام بالسنة الأولى لسنة الشهداء.

وبانتهاء عصر دقلديانوس عام ٣٠٥م دخلت حركة البناء فى الكنيسة المصرية مرحلة جديدة نشطة، ساعد عليها موقف الإمبراطور قنسطنطين التاريخى ووالدته الإمبراطورة

---

(١) هو البطريرك ثاونا: انظر: ساويرس تاريخ البطاركة ص ٥١ ـ ص ٥٢، وإيزيس المصرى: قصة الكنيسة ص ١١٣.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٨٥.

(٤) مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ١٨.

(٥) السنكسار القبطى، حوادث٢٩ هاتور، ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول ص ٥٩ ـ ص ٦٢.

هيلانة، التى ما زال يعزى إليها بناء منشآت دينية فى مصر، أو على الأقل فى فترة عهد الإمبراطور قنسطنطين، كبناء بعض الأديرة التى تؤرخ فى هذه الفترة، كالدير الأبيض، والدير الأحمر، وبعض أديرة محافظة قنا[١] ويعضد هذا الرأى المؤرخ المقريزى بقوله: إنه «فى السنة الثانية عشرة من مُلكه (قسطنطين) على الروم أمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه، وكسر الأصنام وهدم بيوتها»[٢]. ويذكر نفس المؤرخ أيضًا بناء كنيسة فى الإسكندرية على اسم ميكائيل فى بطريركية الكسندروس (٢٩٥ ـ ٣١٨م)، حيث حول بيته إلى كنيسة، وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة حتى احترقت عند قدوم جيش المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٥٨م، وإنْ كانت حركة البناء فى الكنيسة المصرية قد تأثرت بعض الشىء بدرجة من الإهمال فى فترة بطريركية أثناسيوس الرسولى ٣١٨ ـ ٣٦٤ م نتيجة للهرطقات الدينية فى ذلك الوقت، حيث يذكر ساويرس: «وأقام الناس زماناً طويلا يتقربون فى المغاير والبرارى والحقول فى جميع أعمال مصر كلها إلى الصعيد، وكان الآريوسيون أصحاب الملك قد انتشروا فى كل مكان»[٣]. وفى فترة بطريركية تيموثيوس التى تبدأ من عام ٣٧٥ م، بُنيت عدة كنائس بمدينة الإسكندرية[٤].

لقد كان الاعتراف بالدين المسيحى دينًا رسميا للإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ثيوديس عام ٣٩٥ م إيذانًا ببداية مرحلة جديدة مزدهرة فى حركة البناء فى الكنيسة المصرية، وهو الأمر الذى يظهر بوضوح من نتائج الحفائر فى المواقع القبطية لأقدم كنيسة، آثارها باقية من أيام حكم الإمبراطور أركاديوس، وهى الكنيسة المعروفة بكنيسة مارمينا بمريوط[٥]، كما بنى فى فترة حكم الإمبراطور أركاديوس أيضاً الدير المعروف بدير

---

(١) انظر: Butler, A, J: Ancient Coptic churches of Egypt, oxford, 1884, vol, I, P. 365.
يذكر المقريزى حلم قنسطنطين الشهير بقوله: «فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب وصوتًا من السماء يقول له: هذه العلامة تنتصر على عدوك. فقص رؤياه على أعوانه، وعمل شكل الصليب على أعلامه وبنوده، وسار لحرب مكسيمانوس برومية، فبرز إليه وحاربه، فانتصر قسطنطين عليه وملك روميته».
المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٨٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٥.
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة، جـ٢، ص ٦٨.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٧.
(٥) السنكسار القبطى، حوادث ١٥ هاتور.
وانظر أيضا: Anthony de cosson: Mareoits, London, 1955.
وبيتر جروسمان: أبومينا ـ دليل عن مركز الحج التاريخى، ترجمة السيد كمال الدين، نشر معهد الآثار الألمانى بالقاهرة ١٩٨٦.

القصر. وقد كان هذا الدير معروفًا على أيام المقريزى فى القرن التاسع الهجرى / ١٥ م، بدير البغل، حيث يحدده فى جبل المقطم شرقى طرة خارج مدينة فسطاط مصر[١]. هذا وتعد الفترة التى قضاها البطريرك كيرلس الكبير ٤٠٤ ـ ٤٣٦ م من أهم فترات البناء والتجديد فى الكنيسة المصرية، حيث يذكر عنه المقريزى: «فأقام اثنتين وثلاثين سنة، وهو أول من أقام القومة فى كنائس الإسكندرية وأرض مصر»[٢]. لقد أثرت الأحداث الدينية المهمة التى اتخذت أسلوب الهرطقات الدينية فى الصراع المذهبى العنيف على حركة البناء والتعمير فى الكنيسة المصرية، وقد وضح أثرها فى فترة الإمبراطر مرقيانوس ٤٥٠ ـ ٤٥٧م، حيث انفصلت الكنيسة القبطية عن الكنيسة المسيحية عام ٤٥١م فى مجمع خلقدونية، وظلت الخلافات الدينية قائمة بعد هذا التاريخ، بحيث لم يحسم هذا النزاع إلا بالفتح الإسلامى لمصر، بل إن هذا الصراع المذهبى كان له أثره بعد ذلك على نظام الرهبنة فى مصر، حتى إذا ما جاء الفتح الإسلامى كل الانهيار قد أصبح كاملا[٣].

والواقع أنَّ حركة التعمير والإنشاء فى الكنيسة المصرية بعد تاريخ انعقاد مجمع خلقدونية تبعت إلى حد كبير بطريرك مصر للمذهب اليعقوبى[٤] أو الملكانى[٥]، فإذا كان يعقوبىَّ المذهب، قام بإنشاء وتعمير وتجديد الكنائس والأديرة، وسعى فى الوقت نفسه لتعطيل كنائس الطائفة الملكانية، بل أخذها منهم للأقباط البعاقبة، كما كان يحدث العكس إذا تولى منصب البطريرك ملكانىّ المذهب.

كذلك لا يمكن إغفال دور بعض الأباطرة فى حركة التعمير والبناء فى الكنيسة المصرية، فيذكر المقريزى على سبيل المثال أن الإمبراطور زيتون كان يحمل بنفسه لدير

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٨٨.

(٢) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ٧٦ ـ ص ٨٢.

(٣) هارولد إدريس بل: الهيلينية ص ١٤٢، الباز العرينى: مصر البيزنطية ص ـ ٤.

Adeny, Op. cit, p. 553.

(٤) يذكر المقريزى تسمية الأقباط باليعاقبة نسبة إلى البطريرك، ديسقورس، إذ قيل إنه كان يُسمى قبل بطريركته بيعقوب، وقيل إنه كان له تلميذ اسمه يعقوب، وكان يرسله وهو منفى إلى أصحابه فنسبوا إليه، وقيل إنه كان كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى.
المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٩.

(٥) المذهب الملكانى نسبة إلى مرقيانوس، ملك الروم.
انظر: الشهرستانى: الملل والنحل، ص ٢٠٣ ـ ص ٢٠٤، والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٨٨ ـ ص ٤٨٩.

يوحنا بمصر ما كان يحتاج إليه الدير من المؤن الغذائية فى كل عام[١]. كما كان لاعتلاء الإمبراطور أنسطاسيوس الأول ٤٩١ ـ ٥١٨ م عرش الإمبراطورية البيزنطية أثره الواضح فى تمتع الكنيسة القبطية بالهدوء والاستقرار، فقد كان هذا الإمبراطور يعتنق المذهب اليعقوبى، فقامت علاقة طيبة بينه وبين بطريرك اليعاقبة يوحنا الراهب ٥١٢ ـ ٥١٨ م حتى أن السنكسار القبطى يذكر ضمن حوادثه فى شهر بشنس «أن الكنيسة القبطية فى أيامه كانت فى هدوء وسلام، ساعد عليها تربع الملك البار أنسطاسيوس على أريكة الملك»[٢].

لقد استمر تحيز البطاركة فى مصر لمذهبهم لفترة طويلة، فحين تولى البطريرك اليعقوبى تاوذسيوس ٥٢٨ ـ ٥٥٩ م تعرض للنفى أكثر من مرة، ثم عُين بدلا منه البطريرك بولس التنيسى، وكان ملكانى المذهب، وحين رَفَضَهُ أقباط مصر تعرضوا لشدة كبيرة وأُغْلِقَتْ كنائسهم. ويذكر المقريزى أن أقباط مصر استجدوا خلال هذه الفترة كنيستين[٣].

وقد ترتب على هذا الصراع أيضاً نقل كرسى البطريركية مؤقتًا من الإسكندرية إلى دير أنبا مقار[٤]. هذا وقد خربت أديرة وادى النطرون فى فترة بطريركية البطريرك داميانوس[٥]. وحين اعتلى أنسطاسيوس منصب البطريرك، وكان يعقوبىَّ المذهب، بنى عدة كنائس فى مدينة الإسكندرية، كما أعاد الأقباط تجديد كنائس عديدة، مثل كنيسة القديس ميخائيل، والقديس أنجيليوس، عدا عِدَّة أديرة أخرى[٦]. ويورد السنكسار القبطى نصه الهام فى هذا الصدد: «اختير للبطريركية أنسطاسيوس، فاهتم بالكنائس اهتمامًا زائدًا، ورسم أساقفة وكهنة على الجهات التى كانت خالية، وشيد عدة كنائس، واستعاد من الملكية ما كانوا قد وضعوا يدهم عليه»[٧].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٨٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٩، السكنسار القبطى، حوادث ٢٧ بشنس.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٠.
(٤) متى المسكين: الرهبنة القبطية، ص ٨٢٠.
(٥) يذكر النص الذى أورده ساويرس فى تاريخ البطاركة بهذا الشأن: «ومن بعد زمان يسير جاء صوت السماء، على تلك البرية يقول: الهَربَ الهربَ، فلما خرجوا أهل الأربعة ديارات منها خربت».
ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ٩٧.
(٦) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٤٤.
(٧) السنكسار، حوادث ٢٢ كيهك.

لقد ازدهرت عمارة الكنائس والأديرة فى مصر، إذ انتشرت هذه الكنائس والأديرة فى أماكن كثيرة من مدن وقرى مصر، فى حين كانت الأديرة بطبيعتها تنتشر فى مساحات كبيرة من صحراء مصر، غير أن الخراب الكبير الذى أصاب الكنائس والأديرة المصرية حدث خلال الغزو الفارسى لمصر عام ٦١٦م، حيث ظلوا يحتلون مصر حتى عام ٦٢٩م، حين أجبرهم الإمبراطور هرقل عن الرحيل عنها بعد أن حاربهم فى بلادهم، ولقد قدر بعض المؤرخين خراب الفُرس لكنائس الإسكندرية وأديرتها وحدها بحوالى ستمائة دير وكنيسة[١]. وكان لبعضها آكام على شكل أبراج الحمام، بالإضافة إلى سلبها ونهبها، وقد ظلت خراباً حتى الفتح العربى لمصر[٢]. كما خَرَّبَ الفُرْسُ أيضاً ما كان فى ريف مصر من كنائس وأديرة، ولم ينجُ من هذا الخراب الكبيرالذى حل بالكنائس والأديرة المصرية سوى دير الزجاج بالإسكندرية[٣]، ودير قبريوس إلى الشمال الشرقى من مدينة الإسكندرية، كما عاد التوتر من جديد بين أقباط مصر وقيرس وإلى هرقل عليها نتيجة للاختلاف المذهبى، حتى أن البطريرك بنيامين بطريرك يعاقبة مصر هرب من وجهه إلى الصحراء[٤].

ثانياً ـ الرعيل الأول من رهبان مصر:

يعد تتبع سيرة الرعيل الأول من رهبان مصر من أهم مصادر دراسة تطور عمارة الأديرة والكنائس فى مصر، فقد شق رجال من الرهبان الصحراء للنسك والعبادة، وتمسكًا بعقيدتهم ودفاعًا عنها، وهم كثيرون، غير أن النُّسَّاك الأوائل منهم كان لهم فضل ارتياد أماكن عديدة فى الصحراء، أقيم عليها فيما بعد أديرة مشهورة، ما زال بعضها قائماً إلى اليوم، ويأتى فى مقدمة هؤلاء النساك من الرهبان بولس الطيبى،

---

(١) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) يقع هذا الدير على مسافة تسعة أميال غربى مدينة الإسكندرية، وقد بلغ فى القرنين السادس السابع الميلاديين درجة كبيرة من الأهمية، وفيه تم مراجعة الترجمة السيريانية للإنجيل. كما ظل عمرًا برهبانه حتى العصر المملوكى. وقد أورده المقريزى بخططه، كما أورده المؤرخ الواقدى من قبله، حتى أنه يذكر عنه: «وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديورة والصوامع، وكان دير الزجاج فى مملكة القبط». وقد اختفت أطلال هذا الدير الآن.
انظر: الواقدى فتوح البلدان جـ ٢، ص ٢٤.
والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٨.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٤٧ وحاشية رقم (١).

وأنطون، وأمون، ومقار، وباخوم، وشنودة، وصمويل، وكثير غيرهم لا يتسع المقام لذكرهم.

القديس بولس الطيبى:

يعد بولس الطيبى أول المتوحدين، ولد بمدينة الإسكندرية عام ٢٢٤ م، وعزف عن الحياة وهو فى سن صغيرة لم يتجاوز العشرين عامًا[١]، فتوغل فى الصحراء، ولجأ إلى كهف فى البرية الشرقية حيث عاش منقطعاً عن العالم لمدة ثمانين عامًا فى عزلة تامة، وقد اتصل به القديس أنطونيوس فى أواخر حياته. والواقع أن هذا القديس يُعَدُّ الرائد الأول لمنهج نشأة الرهبانية الانفرادية، والتى كان مهدها فى صعيد مصر، وفى قلالٍ على شواطئ البحر الأحمر، وقد أقيم ديره فى نفس المكان الذى عاش فيه معظم حياته. وتعرض الدير على مر العصور لإضافات وتجديدات، وكان عامرًا بالرهبان، وقد أورد المقريزى تسميته بدير النمور، وقد توفى عام ٣٤١ م تقريبًا[٢].

القديس أنطون[٣]:

يعد هذا القديس رائدَ الحياة الجماعية المشتركة عند الرهبان، التى تُعرف باسم «الكينوبيين» حيث مكان تواجد قلالى الرهبان. وقد كان هذا الراهب أول من بدأ عمارة الأديرة فى مصر، حيث يقول عنه المؤرخ أبو صالح الأرمنى: «نجم البرية، وأول الرهبان، وأول راهب سكن البرية، واجتمعت إليه الرهبان من برية مصر، وابتدأت

---

(١) تذكر الروايات التاريخية التى تناولت سيرته أن سبب عزوفه عن الحياة كان لاختلافه مع أخيه حول الميراث الذى تركه والدهما، إذ طمع أخوه بطرس الأكبر فى الثروة، وفى رواية أخرى ترجع سبب هروبه أنه كان بسبب مخاوفه من أن يشى به زوج أخته عند الحاكم الرومانى طمعًا فى ماله أيضًا، فلجأ إلى مغارة.
انظر: إيزيس المصرى، قصة الكنيسة القبطية، ص٨٠ ـ ص ٨٣.

(٢) انظر: السنكسار القبطى، حوادث ٢ أمشير، ومتى المسكين: الرهبنة القبطية ص ٤١، ٤٢، ٧٩، ٧٩٦، وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة ص ٦٦.

(٣) ولد هذا القديس فى بلدة قمن العروس (محافظة بنى سويف) من أبوين غنيين حواليَ عام ٢٥٠م، وعزف عن الحياة وعمره صغير، حيث ترك كل شىء وعاش فى منزل معزول خارج المدينة، ثم تركه وأخذ يتوغل فى الصحراء حتى وصل إلى الصحراء الشرقية، ثم جبل القلالة الجنوبية على ساحل البحر الأحمر، حيث عاش فى مغارته بقية حياته، وتبعه رهبانه.
انظر: إيزيس المصرى ص ٩٣ ـ ص ٩٩، ومتى المسكين: الرهبنة القبطية ص ٤٤ ـ ص ٤٥، وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ٦٩.

عمارة الديارات واجتماع الرهبان إليها»[١] ويقول عنه المقريزى أيضا: «أول من أحدث الرهبانية للنصارى عوضًا عن الشهادة»[٢]. ويعنى هذا النص أن الرهبنة تعطى صاحبها درجة مساوية للاستشهاد فى سبيل العقيدة نفسها، فإذا فَرَّ ناجياً بنفسه من وجه الرومان أصحاب الاضطهاد وأصبح راهباً فقد أدى بذلك واجبه ناحية العقيدة ذاتها، فكأن مقام جهاد النفس لا يقل عن مقام الاستشهاد.

ويتضح من مسيرة حياة هذا الراهب عبوره النيل إلى الصحراء الشرقية، حيث استقر به المطاف عند قلعة قديمة فى الصحراء أنشأ بها قلاية، وقد أقيم على هذه القلاية فيما بعد دير الميمون، وقد ذكر أبو صالح هذا الدير فى خططه بدير الجميزة (على شاطئ بحر النيل المبارك، يجاوره جوسق وبستان وطاحون ومعصرة)[٣]. وأورده المقريزى فى خططه أيضا بدير الجود (ويسمى موضعه البحارة جزائر الدير، وهو قبالة الميمون)[٤]. وقد زار الدير الرحالة ثانسليب عام ١٦٧٣م، والتقط له الرحالة نوردن بعض الصور فى منتصف القرن ١٨م. وكان لا يزال باقياً به حتى هذا التاريخ بقايا من حصنه القديم وأسواره وبعض قبابه وأبراجه[٥].

وقد أقام الراهب أنطون فى هذه المنطقة حوالى عشرين سنة، التف فيها حوله بعض النساك، ولم يتقابلوا معه، مما دفعهم لاقتحام قَلاَّيته فى عام ٣٠٥ هـ، حيث رضى بمطالبهم لمشاركتهم فى حياة جماعية رهبانية، ثم انطلق فى عام ٣١٥م إلى الصحراء الشرقية جهة جبل القلالة الجنوبى على ساحل البحر الأحمر ليعيش بقية حياته فى مغارة يحيط به الرهبان فى قلاليهم حتى توفى عام ٣٩٥م.

القديس آمون:

يعد الراهب آمون أول راهب تطأ قدماه منطقة نتريا (وادى النطرون)، إذ تذكر الروايات التاريخية عنه أنه نبت فى الصحراء، ووهن فى الصحراء، ويعد المؤسس الحقيقى لجماعة ديرية نتريا. ويذكر الأب متّى المسكين أنه اعتزل العالم فى نتريا عام

---

(١) أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة، ص ٦٩.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٢.

(٣) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة ص ٧٠.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٢.

(٥) Vansleben: Nouvelle relation en Forme de Journal d' un Fait en Egypte, paris, 1689, p. 242.

Norden: Travells in Egypt and Nubia, vol. I, pp. 11 - 13.

٣١٥م[١]، فهو أول متوحدى هذه المنطقة، ومؤسس رهبنتها، وأنه تقابل مع القديس أنطونيوس فى حياته. وربما توفى عام ٢٩٧م. وقد مثل هذا المتوحد مرحلة التوسط بين الديرية المشتركة والنسك التوحدى، ورأس بذلك أول جماعة ديرية فى نتريا[٢].

وعلى هذا الأساس فإن آمون كان قد فتح آفاقاً جديدة لحركة الرهبنة، وبالتالى لبناء الأديرة فيما بعد فى هذه المنطقة الشاسعة، التى لا تزال حتى اليوم تخفى كيمانها وتلالها كثيرًا من الأديرة والكنائس والقلالى الأولى، حيث شهدت هذه المنطقة من بداية القرن الرابع الميلادى تجمعًا رهبانيا كثيفًا، كان فى حركة ازدياد مستمر، بحيث كان عدد الأديرة يزيد على خمسين ديرًا، بها أكثر من خمسة آلاف راهب، كان لهم سبعة مخابز لإطعامهم[٣].

الأنبا مقار:

وهو الراهب الكبير الذى ارتبط باسمه جانب آخر كبير من حياة التجمعات الرهبانية فى منطقة وادى النطرون، وُلد بقرية شبشير حوالى عام ٣٠٠م، وبدأ توحده فى منطقة نتريا عام ٣٣٠م، والتقى بالقديس أنطون عام ٣٩٠م، وقد أنشأ أول كنيسة له فى المكان أنشأ عليه فيما بعد دير البراموس، إذ كانت أول كنيسة تُبْنَى فى وادى النطرون عام ٣٥٠م، حسب أقوال المؤرخين، بعد زيارة القديس أنطون للمنطقة، فى المكان الذى وقف فيه وصلى مع آمون، وبذلك أصبحت منطقة دير البراموس أول مركز رسمى لتجمع الرهبان ببرية شيهيت بمصر السفلى، حتى إذا ما جاء عام ٤٠٨م كان قد تم إقامة أربعة أديرة كبيرة تجمع فيها وحولها آلاف الرهبان، حول دير البراموس، ودير أنبا مقار. ثم حدث تَجَمُّعٌ رهبانى ثالث فى موضع دير الأنبا يؤانس (ضمن الأديرة الخربة حاليًا جنوب غرب دير أنبا مقار)، والمنطقة الرابعة مكانها حاليا دير الأنبا بيشوى، وقد ضم دير الأنبا مقار مجموعة كبيرة من الرهبان بعد ذلك، بحيث أصبح عدد رهبانه يزيد على عدد رهبان كل الأديرة المنتشرة فى منطقة نتريا[٤].

(١) متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص ٨٣٠.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.
(٣) عمر طوسون: وادى النطرون ورهبانه وأديرته، ومختصر تاريخ البطاركة ص ١ ـ ١٠.
(٤) انظر: متى المسكين، ص ٢٠٩، ص ٨١٣ ـ ٨١٧.
وأنطونيوس اللدوريرى البراموسى: تاريخ دير السيدة العذراء (دير البراموس) القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٦.
white, E: The Monasteries of Wadi N'Natrun, Newyork, vol, I, pp. 10 - 12.
Meinardus, o: Op. cit p. 178.

الأنبا باخوم:

يعد الأنبا باخوم من الرهبان الأوائل الذين ساهموا فى إنشاء المؤسسات الديرية الأولى فى مصر، وإليه يرجع تأسيس النظام المعروف باسمه (الباخومى) حيث تشابه منهجه فى الحياة الجماعية المتحدة للرهبان مع منهج القديس آمون. وقد أنشأ باخوم ٢٩٠ ـ ٣٤٦م أول دير له فى منطقة طباسين عام ٣١٨م، بفضل ما اجتمع له من رهبان فى أعداد كثيرة، بحيث تمكن من أن يؤسس لهم شركة رهبانية، وأن يشيد لهم جملة أديرة بالصعيد. وقد نقل الأنبا باخوم شيئاً من النظام الشبيه بشىء من أسلوب الإعاشة فى الثكنات العسكرية للجيش الرومانى إلى أسلوب الحياة فى الأديرة، مستفيداً بذلك من الفترة التى قضاها فى الجيش الرومانى[١].

الأنبا شنودة:

من رهبان مصر الأوائل، وكان له دور كبير فى مناطق تجمعات الرهبان بصعيد مصر، خاصة فى صحراء سوهاج حول الدير الأبيض والأحمر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادى، وكان له نظام خاص، ويذكر المقريزى: «أنه كان تحت يده ستة آلاف راهب يقوت هو وإياهم من عمل الخوص»[٢].

الأنبا صمويل:

ارتبطت حياة التجمعات الرهبانية وبناء الأديرة حول شخصية الراهب صمويلٌ في الجبال المحيطة بوادي الريان بالفيوم التي كانت من أماكن التجمعات الأولي للرهبان في جبل القلمون، والنقلون، وقد ذكر المقريزي عن هذا الراهب قوله: «كان في زمن الفترة ما بين عيسي ومحمد صلوات الله عليهم ومات في ثمان كيهك»[٣]. ولد عام ٥٩٧م

(١) متى المسكين: الرهبنة القبطية، ص ٣٨، ٣٩، ١٧٨، ٨٣٢، والسنكسار القبطى: حوادث ١٤ بشنس، وسعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، جـ ١، ص ١٦٣ ـ ١٦٥، إيزيس المصرى، قصة الكنيسة، ص ٢٧٧ ـ ٢٩٢.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥١١. ومتى المسكين: الرهبنة القبطية ص ٨٣٧، وإيزيس المصرى: قصة الكنيسة ص ٤٣٢ ـ ٤٤٤.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٥٠٥.

وترهب فى دير أنبا مقار بوادى النطرون، ثم انطلق إلى برية القلمون ليؤسس فيها فى بداية القرن السابع الميلادى ديره الكبير، وتعرض هذا الراهب لأحداث كثيرة[١].

تاريخ عمارة الكنيسة فى العصر الإسلامى:

الواقع أن دراسة تاريخ عمارة الكنيسة المصرية فى العصر الإسلامى وتطورها يعد من الأمور الواضحة إذا ما قُورنت دراستها فى العصر الإسلامى بفترة عصر ما قبل الإسلام، وذلك من عدة نواحٍ، يأتى فى مقدمتها تعاليم الإسلام السمحة فى تعايش الجميع فى ظل التسامح الدينى بين كل الطوائف، وفى تخلص الكنيسة المصرية من أعمال الظلم والعدوان الذى وقع عليها فى العصر البيزنطى، فوضع العرب فى مصر خاتمة للصراع بين الأقباط والحكام الرومان والبيزنطيين، والذى امتد من القرن الأول الميلادى حتى فتح مصر فى القرن السابع الميلادى ٢٠ هـ / ٦٤١م، وللسياسة الرشيدة التى نهجها حكام مصر خلال العصر الإسلامى، فبنيت الكنائس والأديرة، وجدد ما كان قد تشعث منها، وكثرت التجمعات الرهبانية فى معظم أنحاء صحراء مصر. ووصل كثير من الأقباط إلى أعلى المناصب فى إدارة دفة شئون الحكم خلال فترات التاريخ الإسلامى فى مصر.

وقد بدأت هذه السياسة الرشيدة منذ ولاية عمرو بن العاص، حث أورد المؤرخ ساويرس فرحة أقباط مصر بالفتح الإسلامى بقوله: «وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلَّ رباطُهم وأُطلقوا على ألبان أمهاتهم»[٢]. كما كان فى أمانه للبطريرك بنيامين ما يؤكد سياسته لأقباط مصر. وقد بدأت عمارة الكنائس مباشرة فى ولاية عمرو بن العاص الثانية (٣٨ ـ ٤٣ هـ) إذ بُنيت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية[٣] وكانت قد تشعثت نتيجة لأعمال الحرب خلال فتح الإسكندرية[٤]، كما بُنيت عدة كنائس أخرى، بالإضافة إلى تجديد بعض الكنائس، كما حدث فى كنيسة دير الأنبا مقار بوادى النطرون، والتى يرجع تاريخ تجديد عمارتها الأولى إلى فترة بطريركية بنيامين،

(١) انظر: السنكسار القبطى: حوادث ٨ كيهك. وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ٧١.
Fakhry, A: The Monastery of Kalmon ANNalas du service des Antiquités de l'Egypte, T, 46, pp. 67 - 68
Meinerdus, O: Monks and Monasteries, p. 312.

(٢) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ١١٠.
(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين، طبعة ليدن، ص ٥٠.
(٤) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول، ص ١٠٧.

وفى ذلك يقول الأب متى المسكين: «فلما حل الأمان أول ما بُدئ فى عمارة كنيسة مقار بطبيعة الحال[١]، إضافة إلى سيطرة الكنيسة اليعقوبية ـ كنيسة أقباط مصر ـ على الكنيسة الملكيانية[٢]، حتى أنَّ الأقباط استردوا ما سبق أن أخذه الملكانيون من كنائسهم وأديرتهم فى الفترات السابقة، بل استطاع الأقباط أن يجذبوا لمذهبهم اليعقوبى كثيراً من الأقباط الملكانية[٣]. واستمرت حركة التجديد والبناء فى الكنيسة المصرية خلال العصر الأموى ٤٠ ـ ١٣٢ هـ / ٦٦٠ ـ ٧٥٠ م وكانت أول كنيسة تُبنى فى فسطاط مصر زمن ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى عليها، حيث يذكر عنها أبو صالح الأرمنى قوله: «أول كنيسة بُنيت فى فسطاط مصر هى الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد الأنصارى»[٤]. كما بنيت كنائس أخرى فى حلوان فى ولاية عبد العزيز بن مروان ٦٥ ـ ٨٤ هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٣م، حيث عَهَدَ للبطريرك أغريغوريس برعاية هذه الكنائس والإشراف على عمارتها[٥]. ومن الكنائس التى بُنيت فى عهده كنيسة مار جرجس، وكنيسة أبى قير داخل قصر الشمع، كما سمح للبطريرك إسحاق بتجديد كنيسة مرقس بالإسكندرية، وهى الكنيسة التى أُعيد تجديدها فى ولاية عمرو بن العاص الثانية.

كذلك أورد أبو صالح الأرمنى أن الوليد بن رفاعة والى مصر ١٠٩ ـ ١١٧ هـ / ٧٢٧ ـ٧٣٥م أذِنَ للنصارى بتجديد كنيسة لهم بخط الحمراء فى منطقة مصر القديمة تُعرف بكنيسة أبى مينا، صُنع لها الكثير من الأوانى الحسنة من الفضة وغيرها فى خلافة هشام بن عبد الملك[٦]، ويذكر لهشام بن عبد الملك، أمره لعبد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر فى أن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى حوزة اليعاقبة، فَرُدَّ لهم كنيسة البشارة[٧] وعنى لهم «بطريرك» لأول مرة بعد أن ظلوا بغيره منذ الفتح الإسلامى

(١) انظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٢. والقلقشندى: صُبح الأعشى جـ ٥، ص ٣١٤، ومتى المسكين: الرهبنة القبطية، ص ٤٣١.

(٢) عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣.

(٣) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ ٢، ص ٤٥ ـ ص ٤٦.

(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٣١. والسيوطى: حُسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٠٩) جـ ٢، ص٥.

(٥) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع، جـ ٢، ص ٤١.

(٦) انظر: الكندى: الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨، ص ٧٣ ـ ص ٧٤. والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٢، وأبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٤٢.

(٧) المقريزى المواعظ والاعتبار، جـ ٢، ص ٤٩٣.

لمصر، وربما يرجع ذلك إلى الاتفاق الذى تم بين هشام بن عبد الملك وإمبراطور الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت[١]. هذا إضافة إلى كنائس أخرى ما بين بناء جديد، وتجديد، وإضافة فى عصر هشام بن عبد الملك، ككنيسة مار جرجيوس، وأبى حنس. كما جدد الوالى حنظلة بن صفوان ١١٩ ـ ١٢٤ هـ / ٧٣٧ ـ ٧٤١م كنيسة أخرى للقديس يوحنا، وكنائس أخرى لليعاقبة[٢].

لقد ظلت حركة التجديد والتعمير فى الكنيسة المصرية خلال فترة العصر العباسى الأولى ٧٥٠ ـ ٨٦٨ م / ١٣٢ ـ ٢٥٤ هـ. ويذكر سعيد بن بطريق فى تاريخه أن الخليفة المأمون على سبيل المثال حين قَدِمَ مصر جعل على مدينة «بورة» وما حولها[٣] قبطيا، فبنى العديد من البِيَع فى المدينة وما حولها، كما ذَكَر أبو صالح الأرمنى أن كنيسة الروم التى كانت تقع بالقرب من قبة الهواء جددها خدم الخليفة المأمون فى عهده[٤].

كذلك كان لبعض الأحداث فى هذه الفترة أثرها السيئ على الكنيسة القبطية، إذ هدمت بعض الكنائس، ولكن كان يُعاد تجديدها بعد ذلك، مثلما حدث فى ولاية موسى ابن عيسى ١٧٥ ـ ١٧٦ هـ، أَذِنَ فى تجديد ما سبق هدمه من كنائس، «فبُنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة اللذين قالا إنها من عمارة البلاد[٥]، وقد أسهب «تاريخ البطاركة» فى وصف مشهدٍ حضره أحدُ أساقفة مصر أمام واليها موسى بن عيسى، الذى طلب منه أن يأمر بإعادة وتجديد كل ما تشعث من الكنائس، فأمر له الوالى بذلك، ويقول هذا الأسقف: «فبُنيت جميع بيع فسطاط مصر»[٦] هذا وقد رسم فى خلافة هارون الرشيد ٧٨٧ ـ ٨٠٩ م ـ ١٧١ ـ ١٩٣ هـ بإعادة جميع الكنائس التى

(١) القلقشندى: صُبح الأعشى، جـ ٥، ص ٣١٥، وسيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة ص ١٩٧.

(٢) انظر: مصطفى شيحة: كنائس مصر القديمة وما بها من التحف والآثار (رسالة مخطوطة «ماجستير»)، ١٩٧٤، ص ٣ ـ ٥.

(٣) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع، جـ ٢، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٦٧. «وقد كانت قبة الهواء من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين، مشرف بهيج بديع بين التاج والخمس وجوه، يحيط بها عدة بساتين، لكل بستان منها اسم، ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف، ويركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت والثلاثاء».

انظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ٤٨٧.

(٥) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٦) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الأول.

استولى عليها اليعاقبة مرة أخرى من الطائفة الملكانية[١] على أن حركة التعمير والتجديد فى الكنيسة المصرية قد تأثرت لفترة من الوقت ببعض أحداث عصر الخليفة المتوكل على الله ٨٤٨ ـ ٨٦١م / ٢٣٣ ـ ٢٤٧ هـ، إلا أن الأمور عادت إلى سيرتها الأولى فى أواخر عهده حين أعطى أمانًا لأهل الذمة، فبنى البطريرك «قسما الثانى» كنيسة جديدة فى ناحية سَخَا[٢]. كما بنيت كنائس أخرى عديدة فى فترة البطريرك سانوتيوس الأول ٨٥٩ ـ ٨٨١م ، منها بيعة بدير أبى مقار، ضمن أديرة وادى النطرون كما كرر بيعة بالقرب من مريوط، وجدد فى أديرة مصر العليا وكنائس مدينة الإسكندرية[٣].

وحظيت الكنيسة المصرية فى خلافة المستعين بالله ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م / ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ باهتمام كبير فى حركة البناء والتجديد، التى امتدت لتشمل كل كنائس وأديرة مصر السفلى والعليا، بحيث شملت كل المواضع المصرية من أسوان فى الجنوب وحتى مدينة الفرما فى الشمال، حتى أن سماويرس يصف الخليفة المستعين بالله بقوله: «كان رجلاً صالحاً خيراً... وفَعَل خَيْراً فى أيامه فى أرض مصر وأعمالها»[٤]. هذا وقد تعرضت كنائس وأديرة الصعيد للسلب والنهب خلال النزاع الذى نشب بين المعتز والمستعين بالله بواسطة البدو الذين لم تفرق غاراتهم بين العمائر الإسلامية والمسيحية[٥].

وحينما تمكن أحمد بن طولون من تأسيس الدولة الطولونية بمصر ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م، زاد الأمن والرخاء فى البلاد، وتمتعت الكنيسة المصرية بمزيد من الرعاية والاهتمام، فقد أحَبَّ الشعبَ المصرى بكل طوائفه، ويذكر المؤرخ البلوى كاتب سيرته فى ذلك قوله: «وأما إشفاقه على أهل مصر فكان يزيد على كل إشفاق، حتى أنه كان يجاوز إشفاق الوالد على ولده، يحوطهم ويراعى أحوالهم، ويدفع كل مكروه عنهم[٦].

(١) انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٣٦١. والمقريزى: المواعظ والاعتبار جـ ٢، ص ٤٩٣.

(٢) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ ٤، ص ١٣٩. وساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٤، ١١، ١٢.

(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد.

(٤) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٣٠ ـ ص ٣١.

(٥) يذكر ساويرس عن هؤلاء البدو: «... وهم القوم الذين مساكنهم فى الجبل والبرارى.. وأفسدوا فى الصعيد، ونهبوا وقتلوا من جملة مانهبوا دير أبى شنودة، ودير القلمون بالفيوم، ودير أنبا نجوم الذى من أعمال طلحا، وأحرقوا الحصون، ونهبوا الأعمال، وقتلوا جماعة من الرهبان القديسين الذين فيهم». ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٣٢.

(٦) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، نشر كرد على، دمشق، ١٣٥٨ هـ، ص ١٩٩.

فكان كثيراً ماتتعدد زياراته للصحراء، ليفتقد أحوال رهبانها، فقد روى عنه رهبان دير القصير، أنه كان كثيراً مايطرقهم ويخلو فى بعض قلاليهم[١]، وكذلك كان ابنه خمارويه الذى بنى قاعة أعلى هذا الدير كان يمكث فيها بعض الوقت فى ضيافة الرهبان[٢].

لقد تمتعت الكنيسة المصرية وحركة عمارتها بمزيد من الاهتمام خلال العصر الفاطمى ٩٦٩ ـ ١١٧١ م / ٣٥٨ ـ ٥٦٧ م، فشهد هذا العصر حركة ملموسة فى عمارة الكنائس والأديرة المصرية، فضلاً عن إطلاق ماعُرف بالأرزاق الثابتة المقررة لأديرة الصحراء، حيث كان يُستفاد من ريعها فى إصلاح كل مايتشعث من عمارتها، كما كان كثير من الخلفاء يقومون بزيارات لأديرة الصحراء لتفقدها ورعاية رهبانها. وقد غدت الكنائس والأديرة المصرية فى هذا العصر من أماكن المنتزهات العامة التى يطيب لكثير من الناس فيها بمختلف طوائفهم الوفود إليها، والتنزه بجوارها، والتمتع بما تجاوره من حدائق وبساتين.

وكان اهتمام خلفاء الدولة الفاطمية شاملاً لكل طوائف أهل الذمة فى مصر: مِن يعاقبة، وملكانيين، وأرمن، حتى طائفة النساطرة[٣] كان لهم دير بِبِرْكَة الحَبَش (دير مارجرجس) كان من العمارة الحسنة المحكمة ومن المنتزهات المشهورة[٤]، وقد أورد أبو صالح الأرمنى فى خططه قائمة لعدد كبير جداً من الكنائس والأديرة التى كانت قائمة حتى عام ١٢٠٠ م، موزعة على أبروشيات مصر المختلفة، وقد انحسر هذا العدد إلى حد كبير فى خطط المقريزى، وقد كان هذا الانحسار لعدة عوامل، منها ماانذثر بفعل فيضان النيل[٥]، ومنها بفعل الزلازل، ومنها ماتخرب براب المدن نفسها، ومنها ماكان بفعل الهدم والتخريب فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، وعصر الناصر محمد بن قلاوون، خاصة فى عام ٧٢١ هـ[٦].

وشملت الأرزاق الثابتة المقررة للأديرة من قِبَلِ خلفاء الدولة الفاطمية وبعض وزرائها

(١) المصدر السابق، ص ١١٨.
(٢) الشابشتى: كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عياد، بغداد ١٩٦٦، ص ٢٨٤.
(٣) انظر: مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ٤٢.
(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٥٤، ٩٠.
(٥) المصدر السابق، ص ٧٥ ـ ٧٦، ٥١ ـ ٥٢، ٦٨ ـ ٨٧.
(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٥١١، ص ٥١٦. والمقريزى أيضاً: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، القسم الثالث ص ٦٦٧.

أراضٍ من أجود الأراضى المصرية، كما شملت الأرزاق من الأموال والحبوب الكثير، بخلاف ماكان يُقدم للأديرة من معونات وهبات مختلفة[١]. وقد ساق المؤرخ أبو صالح الأرمنى نصوصاً كثيرة فى هذا الشأن فى أديرة أطفيح ودهشور والقلمون بالفيوم، ودير شهران، ودير القصير، ودير الشياطين (دير الشمع بطوبة بالجيزة) وأديرة سمالوط بالأشمونين، وأديرة وادى النطرون، وغيرها من الأديرة المصرية[٢]. كذلك يلاحظ فى هذا العصر تشييد المناظر أو القاعات الفخمة فى أعلى وأمام الكنائس والأديرة من قِبَلِ الخلفاء والأثرياء والأمراء ووجوه القبط، وذلك للتردد على زيارتها[٣].

إن المتتبع لعمارة الكنيسة المصرية خلال العصر الفاطمى يلاحظ من خلال المصادر التاريخية وفرة النصوص التى ترسم صورة متتابعة لعمارتها خلال العصر الفاطمى منذ قدوم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، فيذكر أبو صالح الأرمنى أن هذا الخليفة أنشأ أيام دير «نهيا» بالجيزة بستاناً وساقية وسبيلا بمجرد وصوله، كما عَمَّرَ الخليفة المعز الكنيسة المعلقة بقصر الشمع عام ٩٧٥ م / ٣٦٥ هـ. وقد توثقت علاقة بطريرك الأقباط الأنبا أفراهام السيريانى بالخليفة المعز، الذى سمح له بعمارة وتجديد كل الكنائس والأديرة المصرية على أساس أنها من عمارة البلاد[٤]. كما توثقت علاقة هذا البطريرك أيضاً بالخليفة العزيز بالله ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م / ٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ، فسمح له بمواصلة مابداه فى خلافة أبيه من تجديد وتعمير للكنائس والأديرة المصرية. وقد أنشأ الأمير تميم أخو الخليفة العزيز عدة بساتين بجوار دير مار يوحنا على شاطئ بركة الحبش، وكان ضمن ماأقامه من منشآت بجانب هذا الدير إنشاء «مجلس على عمد، حَسَن البناء، مليح الصنعة» كما أقام بئراً عُرِفَتْ ببئر ابن مماتى[٥].

ثم تغيرت الأمور والأحداث خلال عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م /

(١) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ١٠ ـ ١٢.

(٢) أبو صالح: كنائس وأديرة ص ٦٠ ـ ٦١، ٨٥، ١١١. والمقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣. وعلى مبارك: الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة، جـ١٧، ص ٥٢.

(٣) الشابشتى: الديارات، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧. وأبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٣٣ ـ ص ٣٤.

(٤) انظر ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ٩٦ ـ ص ٩٧. ومصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ٤٦.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٥٠٣، وأبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة، ص ٤١.

٣٨٦ ـ ٤١١ هـ إلى حد كبير، فقد انقلب على أهل الذمة، ثم وَاصَلَ غضبه على المسلمين أيضاً، فأمر بهدم بعض الكنائس، ثم عاد فى أواخر حياته فأصدر أماناً قبل اختفائه أعاد فيه لأهل الذمة ماأخذ من أوقاف الكنائس والأديرة، وسمح لهم بتجديد وتعمير كنائسهم، وأمر بإعادة الكنائس للنصارى[١]. ومما هو جدير بالذكر أن كنائس وأديرة وادى النطرون لم تتعرض لأى ضرر من أحداث الخليفة الحاكم، والغريب أن الحاكم نفسه أمر بتعمير دير شهران عندما زاره وطلب منه راهبه «بمين» ـ وكان صديقاً للحاكم إعادة تجديده، بل إن بطريرك اليعاقبة الأنبا «زخارياس» طلب من الراهب نفسه التوسط لدى الحاكم لتجديد وتعمير الكنائس المصرية، فوافقه على ذلك[٢].

لقد هدأت الأمور بعد عصر الخليفة الحاكم إلى حد كبير فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م / ٤١١ ـ ٤٢٧ هـ، وأعيد تجديد وتعمير كل ماكان قد تشعث من عمارة الكنائس والأديرة، حتى أن ساويرس يصف ذلك بقوله: «وكان فى أيام الظاهر هدوء وسلامة عظيمة، وأقام ستَّ عشرة سنة ملكاً، وكان دين النصارى مستقيماً، وأهله مكرمين وبُنيت البيع فى أيامه حتى أُعيدت كما كانت عليه وأفضل، ولم يزل البناء فيها والعمارة متصلة إلى السنة التى كتبت فيها هذه السيرة، وهى سنة سبع مائة وستين للشهداء، ١٠٤٤[٣]، وقد تواصلت رعاية عمارة الكنيسة والدير فى مصر فى خلافة المستنصر بالله ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م / ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ، وقد استحدث البطريرك «خرستوذلوس» فى عصر المستنصر كنيسة بمنطقة مصر القديمة، هى كنيسة بوموقدرة، وكنيسة أخرى هى كنيسة السيدة العذراء بحارة الرُّوم[٤]. كذلك كان الخليفة الآمر بأحكام الله ١١٠١ ـ ١١٣٠ م / ٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ كثيراً مايزور الأديرة ويتبرع لها، ويأمر بعمل تجديدات بها، فقد كان كثيراً مايطرق دير «نهيا»، وكان فى كل مرة يزور هذا الدير يعطى رهبانه ألف درهم، بعد ضيافتهم له، حتى أن الرهبان جمعوا من جملة ماتحصل لهم من زيارات الآمر ماينا هز خمسة وعشرين ألف درهم، جددوا من حصيلتها حصن

(١) انظر: محمد عبدالله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة ١٩٥٩، ص ٥٢، والمقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٤٩٤، والمقريزى أيضاً: اتعاظ الحُنَفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا، جـ٢، نشر محمد حلمى ص ٤٨، ص ٧٥.

(٢) ساويرس: تاريخ البطاركة، المجلد الثانى، ص ١٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٣١، المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص ٤٩٥.

الدير الضخم، كما أنشأ به نظرة عالية، تتوجها قبة شاهقة الارتفاع[١]. ويذكر أبو صالح الأرمنى أن رهبان هذا الدير انتهزوا فرصة إغداق الآمِر عليهم وطلبوا منه أن يخصص لهم مساحة من الأراضى الزراعية الجيدة يذهب ريعها للدير، فأجاب سُؤْلَهُم، وأنعم عليهم من أراضى ناحية «طهرمس»، تمليكاً ثابتاً منه بخط يده، «قطعة أرض قبالته بغير مساحة، مايقارب ثلاثين فدانا استمرت بأيديهم»[٢].

ومن الأديرة التى أعيد تجديدها فى خلافة الآمِر بالله دير «طموية» بالجيزة، الذى جدد عمارته «أبو اليمن» أسفل الأرض، وابنه أبو المنصور. وكان الأفضل شاهنشاه ينزل هذا الدير ويقيم فيه، وأنشأ به منتزهاً وبستاناً، غرس فى جواره جميع الأشجار والنخيل، وحفر آباراً ركَّبَ عليها سواقى، كما أحدث بداخله معاصِرَ للزيوت، وأنشأ أيضاً أبو اليمن قنطرة كبيرة أعلى كنيسة المرتوتى سُميت بالسلوقية، ومن المعروف أن الخليفة الآمِر أنشأ منظرة علو دير القصير، كان يقيم بها حين يفد إلى المنطقة فى رحلاته للصيد، وكانت تجاور هذه المنظرة تلك التى بناها خمارويه، فى الجانب الشرقى من الدير[٣]، كما جدد الخليفة الآمر كنيسة لطائفة الملكانية، كانت تقع بجوار دير مار يوحنا بمنطقة البساتين. وقام خلال فترة خلافته أبو الفضائل النسطورى بتجديدٍ فى دير للنساطرة كان على شاطئ بركة الحَبَش على اسم مار جرجس[٤].

وتتابعت حركة التجديد والتعمير فى الكنائس والأديرة خلال فترة خلفاء هذه الدولة أيضاً، ففى عصر الخليفة الحافظ لدين الله ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م جدد جوسق (حصن) دير المحرق بأسيوط، وكنيسة يوحنا المعمدان بمنطقة مصر القديمة، وأنشأ الإمام جبريل ابن الإمام الحافظ لدين الله منظرة كبيرة أمام كنيسة المرتوتى، وتم تجديد عمارة دير الشياطين[٥].

لقد حظيت الكنيسة فى العصر الإسلامى باهتمام بالغ تَمَثَّلَ فى حركة التعمير والبناء منذ بداية العصر الإسلامى وحتى نهاية العصر الفاطمى ـ كما تقدم ـ وهو الأمر الذى

(١) أبو صالح الإرمنى: كنائس وأديرة، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.
(٣) أبو صالح: كنائس وأديرة ص ٦٤ ـ ص ٦٥، ص ٨٥، والشابشتى: الديارات، ص ٢٩٨ ـ ص ٢٩٩.
(٤) أبو صالح: كنائس وأديرة، ص ٤، ٥٤، ٥٥، ١٠٦.
(٥) المصدر السابق، ص ٨٤ ـ ٨٥، ص ٩٨ ـ ٩٩.

استمر خلال العصور الإسلامية المتتالية. هذا وقد تميزت الكنيسة المصرية فى عمارتها ببعض الخصائص المعمارية والزخرفية، وكذلك فى عمارة الأديرة، وهو الأمر الذى سنعرض له بإيجاز شديد فيما يلى:

تخطيط الكنيسة المصرية:

ساد التخطيط البازيليكى[١] عمارة الكنيسة المصرية، وهو الأسلوب الواضح فى عمارة معظم كنائس منطقة مصر القديمة، وكنائس الوجه البحرى، ومعظم كنائس الوجه القبلى، وهو التخطيط القائم على الأروقة الرأسية الثلاثة، أوسطها أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وتنتهى الأروقة الرأسية عادة بالهياكل الثلاثة فى الناحية الشرقية بعناصرها المعمارية المميزة[٢]، وهو ماتنفرد به الكنيسة المصرية عن الكنيسة الغربية.

والواقع أن الكنيسة المصرية تتكون من عدة أجزاء معمارية، تشمل الواجهة، التى كانت تضم عادة ثلاثة مداخل محورية تؤدى إلى مايُعرف بدهليز المدخل، وهو عبارة عن رواق مستعرض من الشمال إلى الجنوب، ومحدد بواسطة بداية صفوف البائكات التى تقسم الأروقة، ثم الأروقة الثلاثة أو أكثر، فمكان المرتلين، فالهياكل الثلاثة، وقد تميزت الكنائس البازيليكية بتغطيتها بسقوف خشبية فى معظم الأحيان، حيث يغطى الرواقَ الأوسط الرئيسى سقفٌ جمالونى من الخشب، أكثر ارتفاعاً من السقوف المسطحة التى تغطى الرواقين الجانبيين. ويلاحظ فى كنائس الصعيد من هذا النوع استخدام الأقبية والقباب فى التغطية، نظراً لعدم توافر مادة الخشب، وطبيعة الطقس الحار، ووجود حشرة

(١) تعددت الآراء حول مصدر هذا التخطيط، حيث يرجعه بعض الباحثين إلى أنواع العمائر الرومانية القديمة التى اتخذت من ساحة العدل عند الرومان مصدره، حيث كانت تتكون من مساحة مستطيلة الشكل، يقسمها صفان من البائكات إلى أروقة ثلاثة، الأوسط أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وتنتهى هذه المساحة بحنية كبيرة كان يُعقد فيها مجلس القضاء، أو مجلس كبار التجار، ويذهب بعض الباحثين أيضا إلى الرأىَ فى إرجاع مصدر هذا التخطيط إلى قاعة الأعمدة الضخمة فى المعبد المصرى القديم فى عصر الدولة الحديثة:

انظر: Flectcher; History of Architecture, pp. 196-199, 222-226. Butler, A, op. cit pp. 2-4 Dalton,O: East christian Art, pp. 89-94. (oxford, 1925) Badawy, A: L'Art copte, les Influences Egyptiennes D'Art copte, pp. 4-7 (le caire, 1949).

(٢) الهيكل بمثابة حجرة مربعة أو مستطيلة الشكل، يتوسطها مذبح من الحجر أو الآجر أو الخشب أو غير ذلك، يعلوه قبة خشبية محمولة على أعمدة رخامية أو حجرية أو خشبية. وإلى الخلف منه مدرج رخامى من عدة درجات، ويتوسط الجدار الشرقى حنية صغيرة.

النمل الأبيض التى تلتهم الأخشاب، وقد ترتب على هذا الأمر حدوث تغييرات فى الأجزاء المعمارية الداخلية للكنيسة، وإمكانية تعدد الهياكل بشكل غير عادى.

وقد تميزت بعض الكنائس المصرية بمميزات معمارية، خاصة فى صعيد مصر، ككنيسة الدير الأبيض، والدير الأحمر، وكنيسة دندرة وهى تتميز بوجود الحنية الثلاثية فى نهاية الكنيسة من الناحية الشرقية. كما تميزت الكنائس المصرية عامة فى وجود المنبر (الأمبون) فى الناحية الشمالية الشرقية من الرواق الأوسط بالكنيسة، يُضاف إلى ذلك ماتميزت به الكنيسة المصرية من زخارف الفرسكو (الألوان المائية) حيث الموضوعات الدينية التى تشرح لرواد الكنيسة معتقداتها، ودور الآباء والقديسين والرهبان، فضلاً عن موضوعات السيدة العذراء والسيد المسيح.

ويبدو أن التخطيط الصليبى كان معروفاً فى مصر منذ زمن بعيد، حيث كشفت الحفائر عن كنيسة ذات تخطيط (صليبى) وهى الكنيسة المعروفة بكنيسة أبى مينا (القرن ٤ ـ ٥ م)، ونعتقد بأن تأثير عمارة الكنيسة البيزنطية على الكنيسة القبطية لم يكن كبيراً. إذ أن أهم مايميز الكنيسة البيزنطية استخدامها للقبة المركزية التى تغطى المساحة الوسطى أو المساحة الرئيسية فى البناء الكنسى، والقبة كعنصر معمارى عُرفت فى مصر منذ عصر الدولة القديمة فى الحضارة المصرية القديمة.

هذا وقد ساد فى مصر فى العصر العثمانى تغطية مساحات الكنيسة بالقِبَاب، ولم يكن أيضاً هذا النوع من التخطيط غير معروف فى مصر، إذ أن كثيراً من كنائس الوجه القبلى غُطيت بالقباب منذ العصر الفاطمى، هذا وتتميز واجهات الكنائس المصرية ببساطتها وتناسق عمارتها، ويندر أن نجد فى الكنائس القبطية القديمة مايُعرف بأبراج الكنائس كوحدات معمارية مستقلة بذاتها[1].

تخطيط الدير[2]

يشتمل الدير على مجموعة من الأبنية تحقق للرهبان بداخله حياة آمنة، حتى يتفرغوا

(١) انظر: مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة، ص ٥٧ ـ ٦٨ ص ١٧٣ ـ ١٧٧.

(٢) يذكر المقريزى فى تعريفه للدير أنه «خان النصارى، والجمع أديار، وصاحبه ديار وديرانى». قلت: الدير عند النصارى يختص بالنسّاك المقيمين فيه. ويذكر الشابشتى: «أن هناك مواضعَ مختلفة تُبنى فيها الأديرة، وتختلف باختلاف مواضعها، فمنها ماتسنَّم الجبال، أو ماتوسَّد ضفاف الأنهار، أو ماقترب من المدن والأرياف، أو ما انفرد فى البرارى والقفار».

للعبادة، وقد تَخَلَّفَ من عمارة الأديرة المصرية عددٌ لابأس به، حيث كانت معظمها عامرة برهبانها خلال العصور الماضية، ومن هذه الأديرة أديرة وادى النطرون، دير الأنبا مقار، ودير السيدة العذراء المعروف بدير البراموس، ودير الأنبا بيشوى، ودير السيدة العذراء المعروف بدير السيريان، وأديرة البحر الأحمر، ودير القديس أنطونيوس، ودير الأنبا بولا، ودير القلمون والنقلون بالفيوم، ودير الميمون، والأديرة العديدة بمحافظة قنا، ودير القديس سمعان بأسوان، ودير المحرق بأسيوط، والدير الأحمر والدير الأبيض بسوهاج، وغير ذلك من الأديرة القبطية، بالإضافة إلى بعض أديرة الراهبات فى مصر. ويُعد دير سانت كاترين بسيناء من الأديرة المهمة التى يتضح فى عمارتها أثر العمارة والفن البيزنطى.

وتشترك الأديرة جميعها فى وجود عناصر معمارية ضرورية، وقد جرى عليها عمارة الدير بعد أن اكتملت هذه العناصر المعمارية بمرور الزمن متمثلة فى الأسوار التى تُبْنَى عادة بارتفاع كبير، وتُدَعَّم بأبراج ساندة، وبعضها للمراقبة. ويوجد بالسور عادة مدخل واحد لزيادة الأمان، وكانت الأسوار القديمة تُبنى عادة من الطوب اللبن، ومن قوالب كبيرة الحجم وفى الكنيسة، التى تُعد من أهم الوحدات المعمارية الدينية داخل الأديرة، ولأهميتها الدينية كان لايقتصر الأمر على كنيسة واحدة، بل تعدد الكنائس داخل الأديرة والقلالى، وهى أشبه بحجرات صغيرة يعيش فيها الرهبان، وكان تخطيطها فى معظم الأديرة المصرية على شكل كتلة مستطيلة البناء بتوسطها مَمَرٌ كبير مقبىٌ، على جانبيه صفوف القلالى المتجاورة، وقد اختلف عدد هذه القلالى، حسب عدد رهبان الأديرة. أما الحِصْن فهو يعد من أهم المبانى المُؤَمَّنة داخل الدير، حيث كان يلجأ إليه الرهبان فى حال تعرض الدير لغارات البدو، وهو على هذا الأساس يكون منفصلا عن كل وحدات الدير المعمارية ويتكون من ثلاثة طوابق، بهما وحدات الإعاشة، والمؤن، وكنيسة صغيرة للعبادة، وغير ذلك مما يلزم من وحدات تخدم الرهبان فى حالة اللجوء إليه لطول فترة الحصار. كما تعد المائدة أيضاً من العناصر المعمارية بالأديرة ذات الصفة الدينية، حيث يجلس الرهبان عادة كل يوم أحد من كل أسبوع حول منضدة طويلة مستطيلة الشكل قليلة الارتفاع، بعد صلاة القداس بالدير لتناول وجبة الأغابى (المحبة) داخل قاعة كبيرة مستطيلة الشكل، مقسمة من أعلى بواسطة عقود متنوعة إلى مربعات ومستطيلات، تغطيها قباب وأقبية.

هذا وتشتمل عمارة الأديرة على عناصر أخرى مهمة، كالمعاصر، والطواحين، والأفران، وخزانات المياه، والآبار، ودار للضيافة، وجبانة صغيرة ملحقة بالدير، ومساحات للزراعة، فضلا عن المكتبة التى تعد من أهم وحدات الدير، لاحتفاظها بالمخطوطات والكتب الدينية التى تشكل جانباً مهماً بالنسبة لحياة الرهبان[1].

* * *

(١) انظر: مصطفى شيحة، دراسات فى العمارة، ص ٦٩ ـ ص ٧٨.

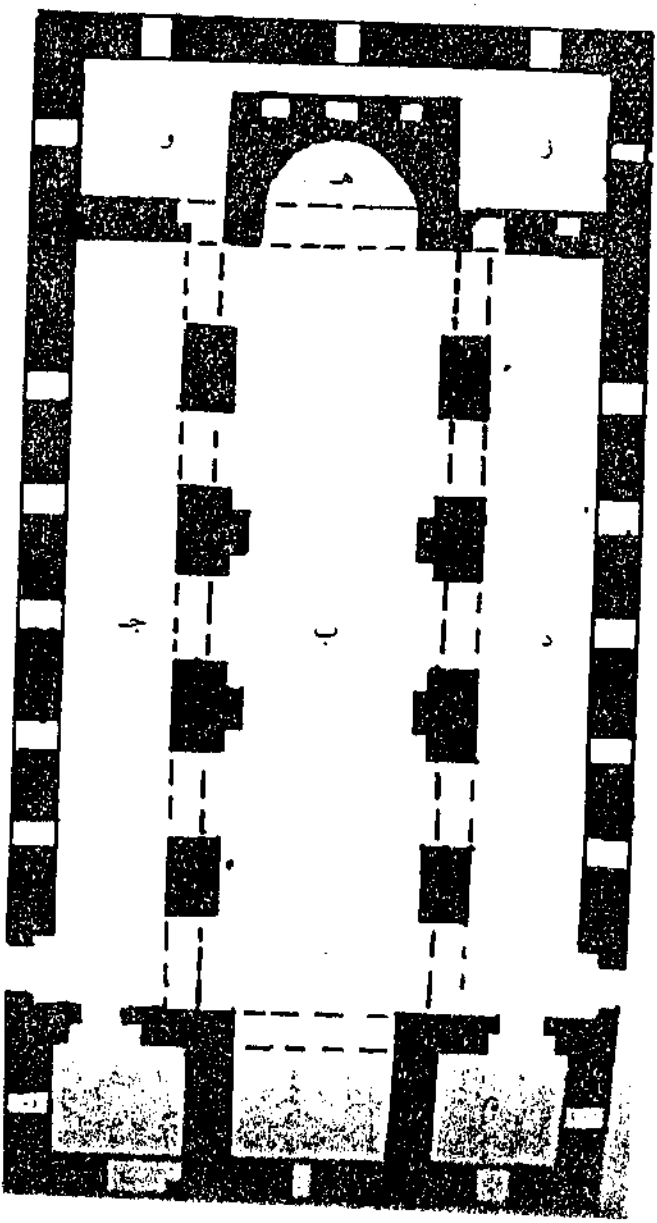

شكل (١) : كنيسة بازيليكية الطراز

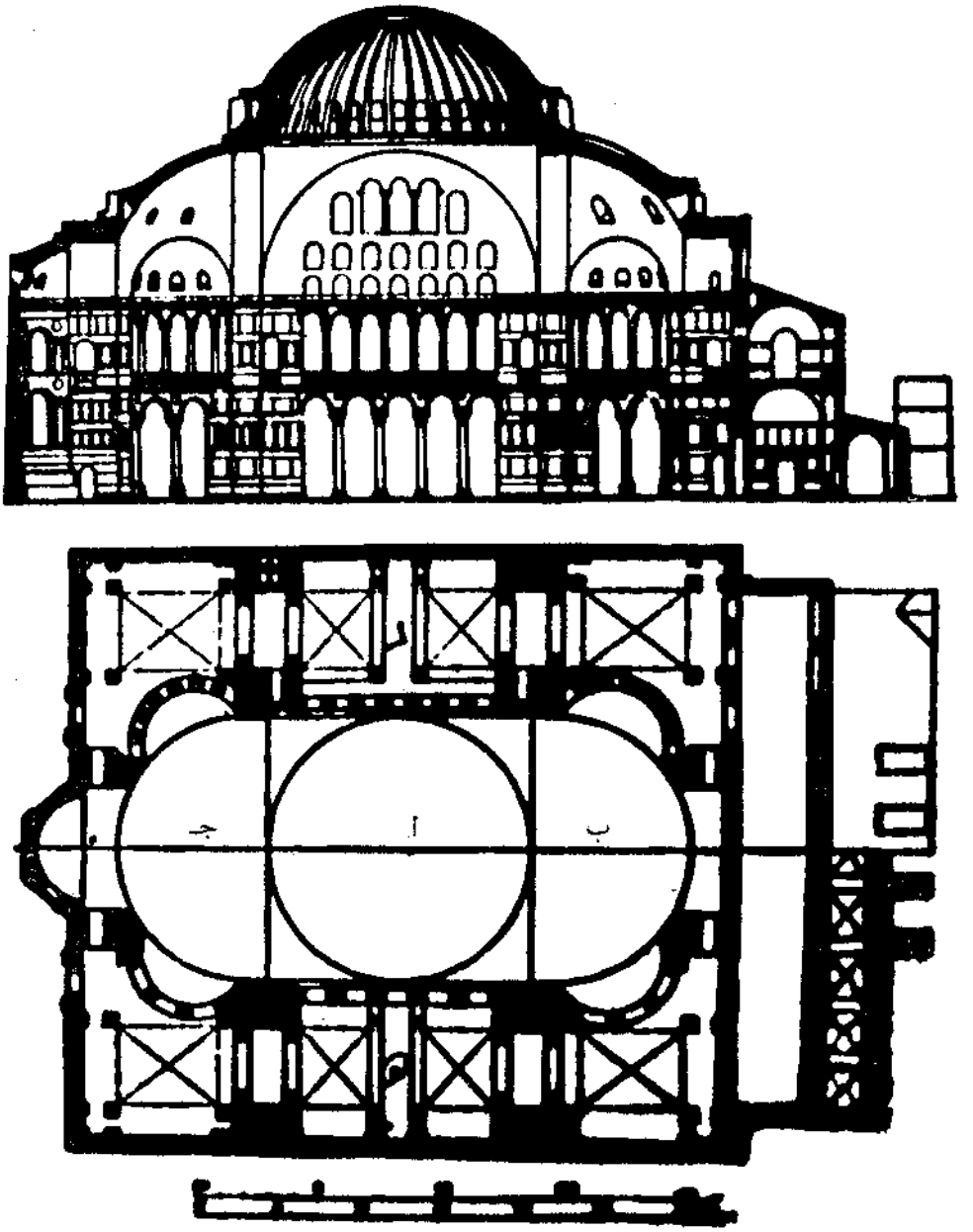

شكل (٢) : كنيسة آياصوفيا (الطراز البيزنطى)

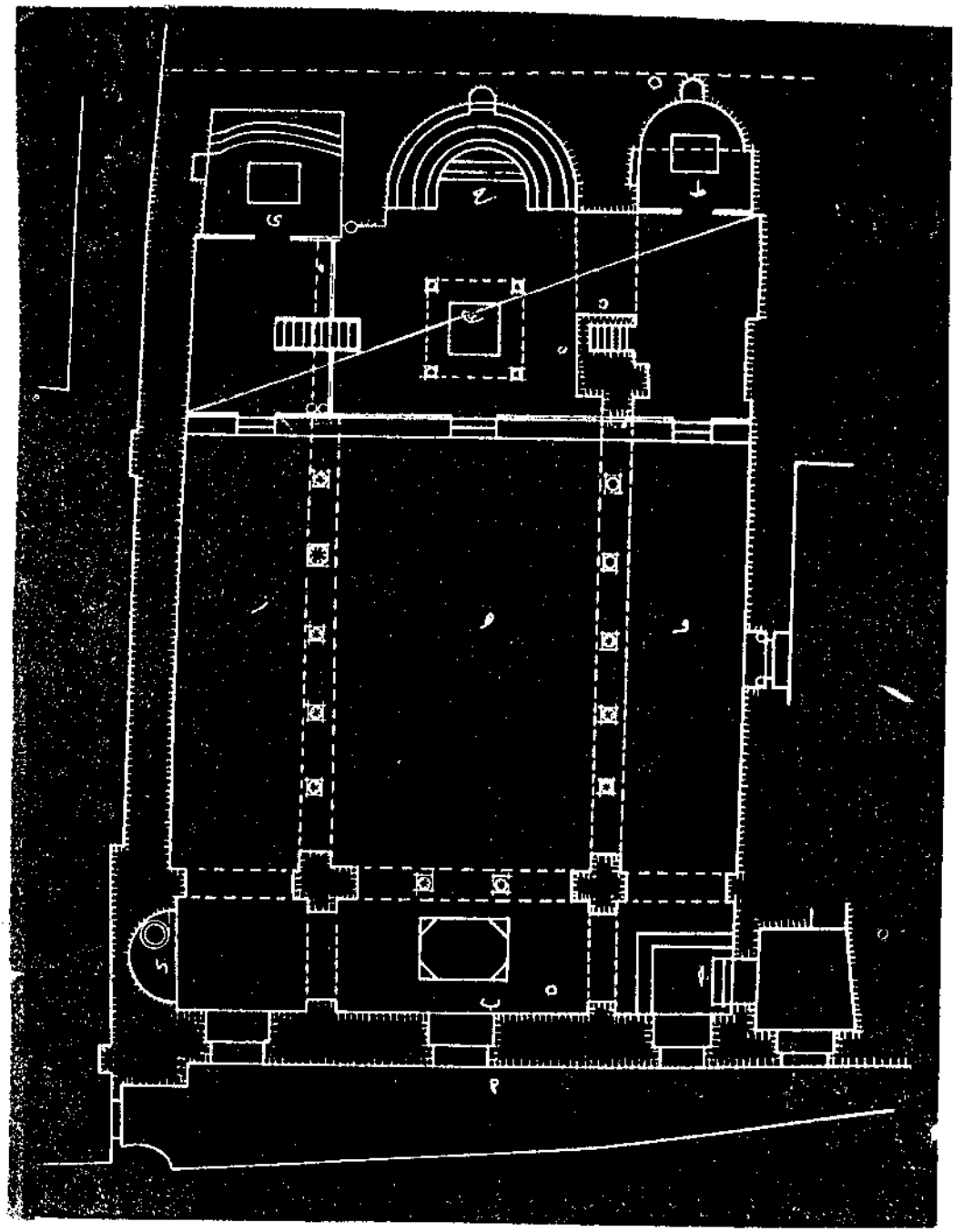

شكل (٣) : كنيسة أبى سرجة بمنطقة مصر القديمة

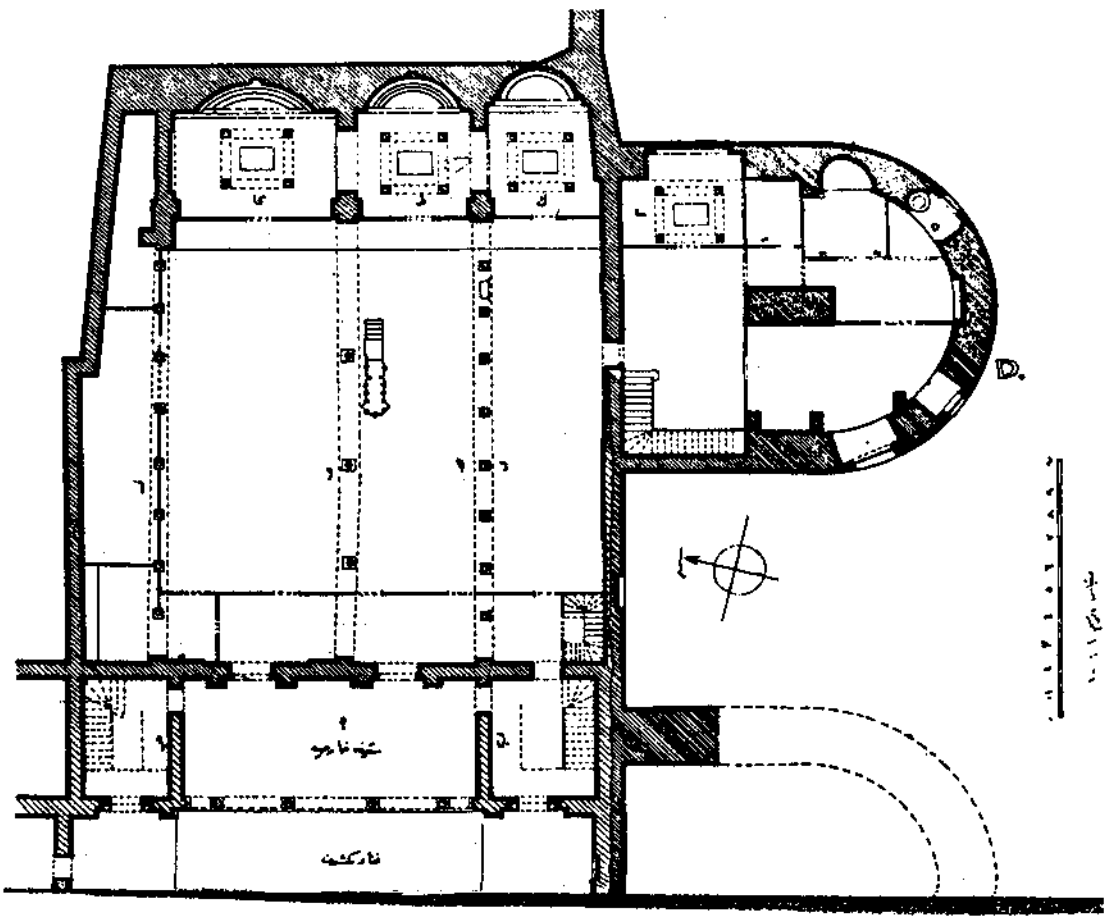

شكل (٤) : الكنيسة المعلقة بمنطقة مصر القديمة

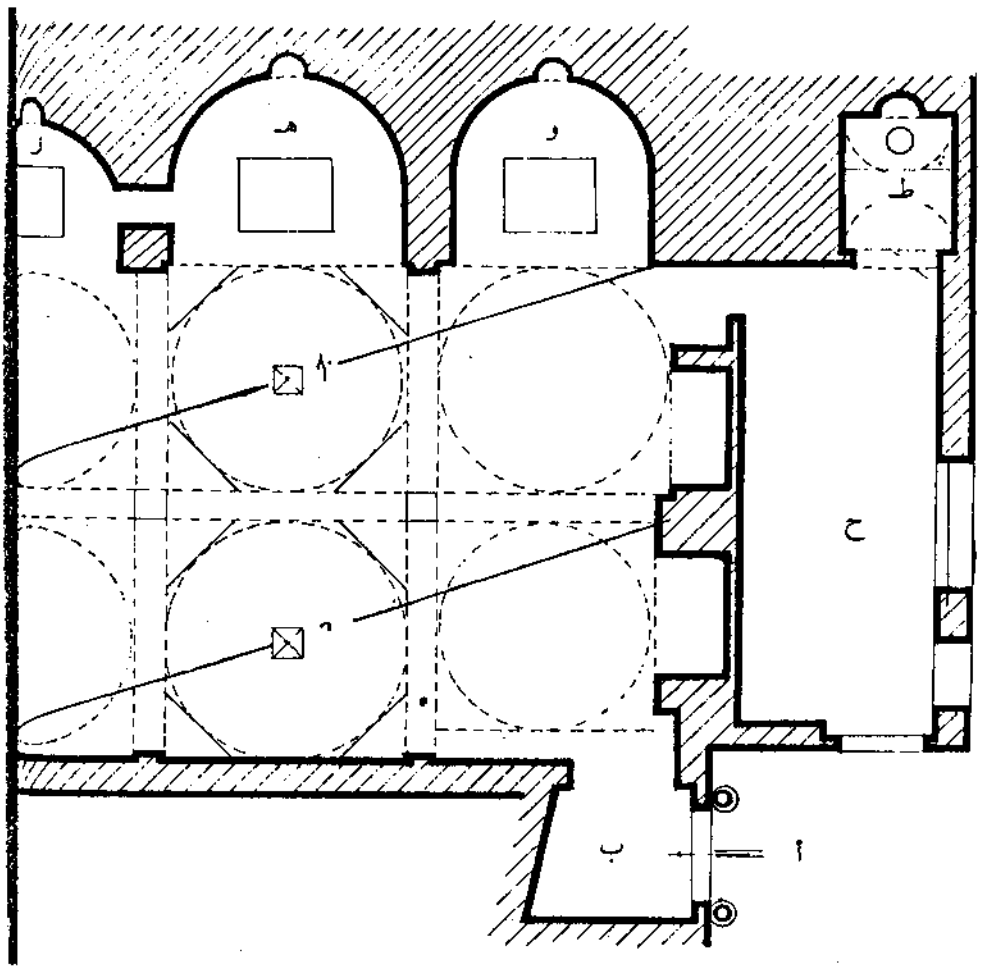

شكل (٥) : تخطيط كنيسة السيدة العذراء المعروفة بقصرية الريحان بمنطقة مصر القديمة

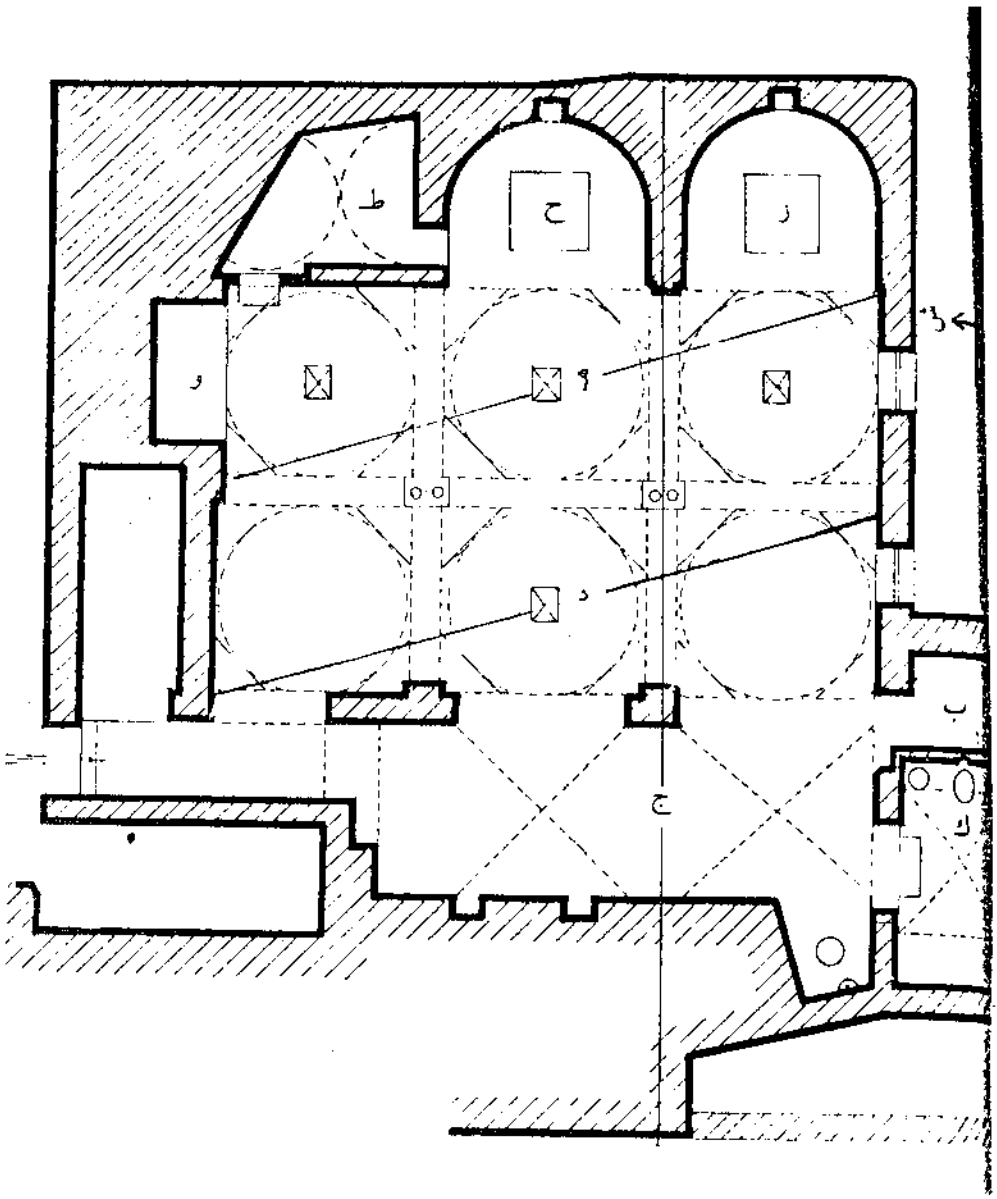

شكل (٦) : تخطيط كنيسة الأمير تادرس المشرقى بمنطقة مصر القديمة

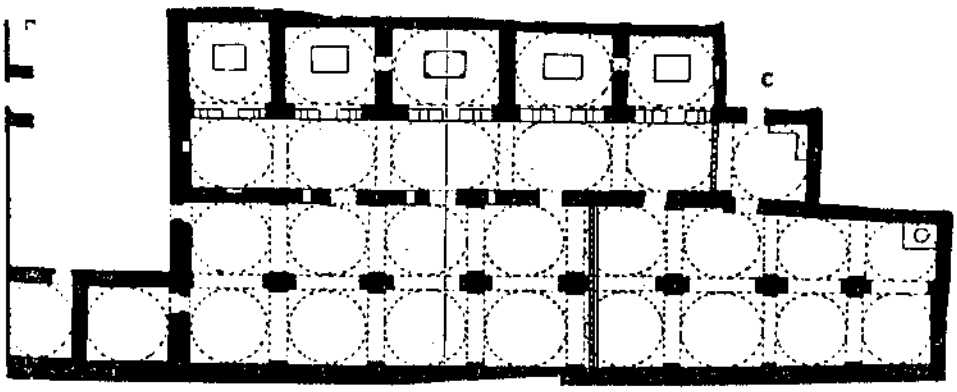

شكل (٧) : تخطيط كنيسة المدامود

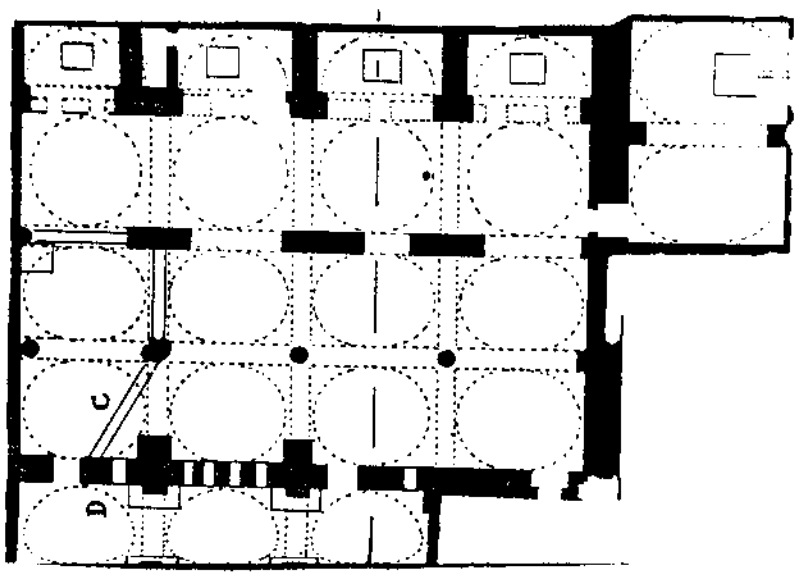

شكل (٨) : تخطيط كنيسة تيودور بمدينة هابو

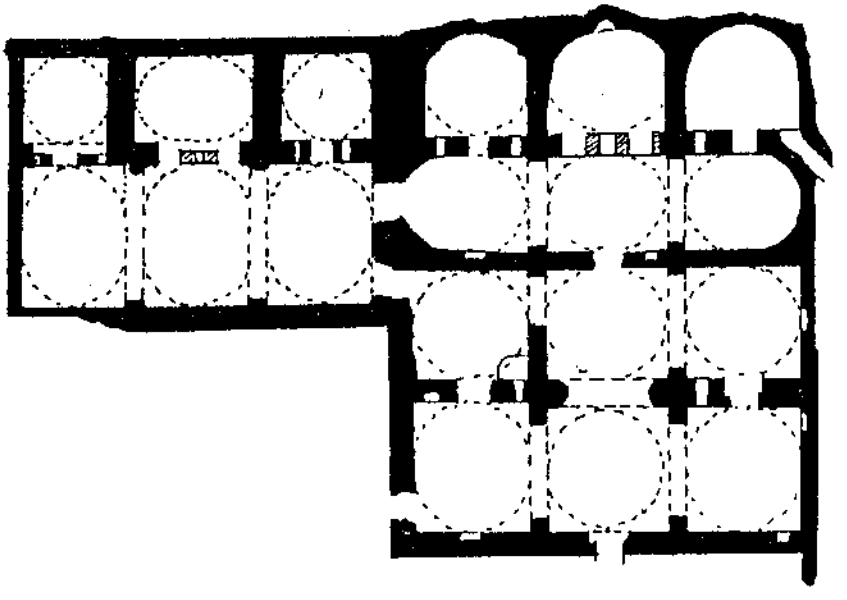

شكل (٩) : تخطيط كنيسة دير الملاك ميخائيل بنقادة

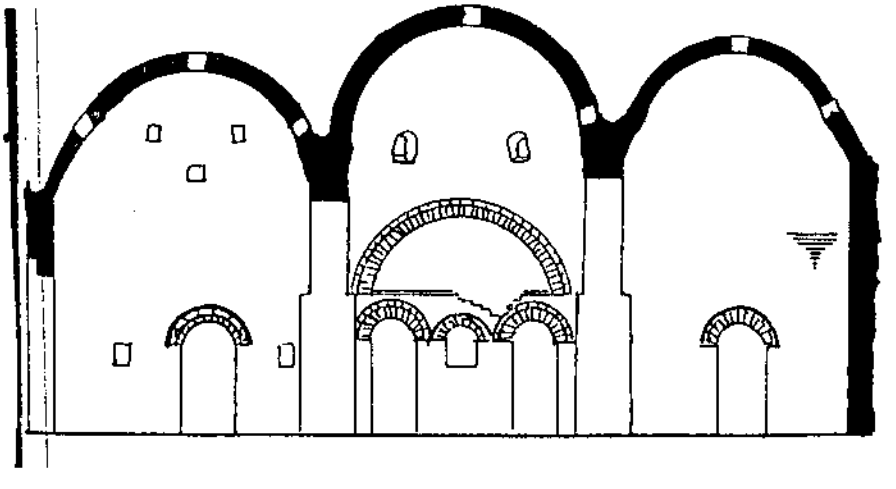

شكل (١٠) : قطاع رأسى جهة عقود وجدران
كنيسة دير الملاك ميخائيل بنقادة

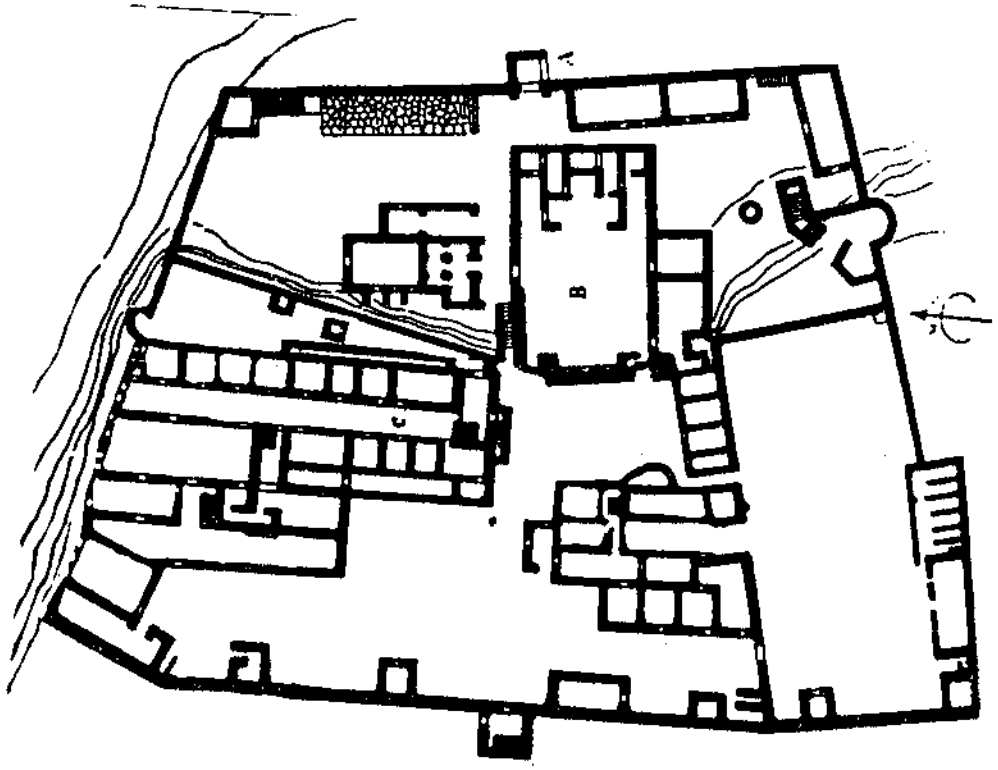

شكل (١١) : تخطيط دير سمعان بأسوان